

البداية

الغناء أكثر الأشكال الفنية قدرة على التأثير في أفكار الناس وعلى صياغة وجدانهم وأكثرها التصاقاً بهم. فلا يوجد إنسان على ظهر الأرض لم يغن، ولم يدندن بأغنية أو موال ليذهب عن نفسه الوحشة ويتغلب على هموم الدنيا، أو ليعبر عن سعادته وابتهاجه.

وتعبر الأغنية عن قيم المجتمع ومبادئه وأخلاقه، وعن حياة الإنسان منذ ميلاده حتى وفاته، وكانت المجتمعات تعتبرها أدوات مهمة لنقل ثقافتها وخبراتها من جيل إلى جيل، وبعد أن تطورت وسائل الاتصال الجماهيرية زادت أهمية الأغنية، واعتمدت عليها أجهزة الإذاعة والتلفزيون بشكل أساسي، وتمثل نسبة كبيرة من وقت الإرسال فيها، كما ظهرت قنوات متخصصة في الأرض والفضاء، مسموعة ومرئية وعلى شبكة الإنترنت.

يشهد التاريخ للمصريين بحبهم للموسيقى ويسجل لهم شدة تعلقهم بفن الغناء، فعندما يغنون، ينشطون، ولا تكاد ساحة أعمالهم تخلو من الغناء أو الزمر والإنشاد.

قال فيلسوف الإغريق هيرودوت أبو التاريخ: إنه سمع من أغاني مصر أغنيات صارت فيصا بعد أغنيات شعبية في بلاد اليونان. وعلى جدران المعابد الفرعونية التي أنشئت للاحتفال بأسرار العبادات مناظر منقوشة ومرسومة بها مشاهد رمزية وحفلات دينية ومواكب يصحبها موسيقيون بعضهم يغنى وبعضهم يعزف باستخدام آلات متنوعة تتقدم المواكب كهنة موكلون بالقرابين.

«كانت موسيقانا وقورة والأصوات قوية، فالرجال يغنون برجولة ثم غزا الفرس مصر بقيادة ملكهم «قمبيز» ومعهم موسيقاهم الآسيوية شديدة التنوع كثيرة الأنات، باعثة للشهوات والملذات، رخوة، متراخية تدعو للفسوق وتحض على الرذيلة، فرفضها المصريون فقد كانت قوانينهم الخاصة بالموسيقى لا تتقبل إلا ما كان من طبيعته أن يتسامى بالروح ويعودها على الشاعر النبيلة، وتحذر من الزيادة البالغة والتنوع الشديد في الأنغام حتى تضمن أنها تصور حالة نفسية لإنسان عاقل متسامح قوى شجاع».

ومع ما لفن الموسيقى والغناء من أهمية عند العرب لم تشأ حركة النقد الفني في بلادنا أن تضعه في اعتبارها، مع أن هذه الحركة ساهمت في تطوير فنون المسرح والسينما والفن التشكيلي وتركت الغناء بلا منهج، ويعتمد على الانطباعات الخاصة للمتلقى والناقد والتأثيرات التي ظللنا نسمع أغنياتنا من خلالها.

إن موسيقانا المصرية التى رفعها أفلاطون فوق موسيقى اليونانيين واعتبرها النموذج الأفضل والأكثر اكتمالا للموسيقى تحتاج إلى اهتمام كبير لنصونها من هوجة أغانى الإيقاعات الراقصة المكررة وسابقة التجهيز والنغمات الغربية والأمريكية التى اقتحمت حياتنا تم فرضها من مختلف وسائل الإعلام لذا يتحتم علينا تدعيم موسيقانا وحمايتها من الخطر المترص بنا وخطر غول العولمة. ومن الحتمى والمفيد دراسة الغناء العربى فى مظاهره المتنوعة وأساليبه المتعددة وأنواعه المتباينة وتاريخه الخاص، من منطلق أن كل لون هو حياة خاصة ويعبر عن ظروفه ومجتمعه، وكل فن له ثراؤه وتواصله مع متلقيه، فإن طبيعة المجتمع ومميزاته الفكرية والثقافية هى السمات التى تنطبع على الأعمال الغنائية والموسيقية المنتمية إلى هذا العصر والأسلوب الذى يتبعه كل ملحن أو موسيقى فى عمله.

وقد اختلف العلماء على تعريف كلمة الأسلوب، لكنها هى القالب والأفكار الذى تميزه الإيقاعات والألحان ومقاماتها والمعالجة العلمية لأعماله، وتعتبر جماليات الغناء العربى حدا فاصلا فى انتماء الملحن لأسلوب بعينه، أو إلى مدرسة ومذهب فتحدد درجة التعامل معها ملامح هذا الأسلوب إلى حد بعيد. كما أن التطريب لا يعد مذهباً فى التلحين ولا هو لون ولا هو أسلوب، إنه أثر نفسى يصوغه الغناء فى كل ألوانه وأشكاله مهما اختلفت قوالبه ويؤثر على المتلقى كل حسب ثقافته وحسب عمره والجيل الذى ينتمى إليه.. حسب بيئته أيضاً.. ومن الطرب ما هو نفسى فى أعمال روحانية بحتة، ومنه ومعه ما هو غريزى من أعمال تستخدم فى اللهو والمتعة الحسية.

أما الأسلوب فهو ملامح روح العمل الفنى وهو ما يراه «باخ»، فالملاح فى رأيه هى التى تميز بين الأفريقى عن الأسيوى، وهى غير ملامح الروح التى قد تظهر فى عمل أبدعه هذا أو ذلك. يرى البعض أن الأسلوب هو الوحدة الواضحة التى تعلم مميزات الأعمال الفنية أو إنتاج الفنانين المنتمين إلى عصر واحد وبيئة واحدة أو بيئات متقاربة ويقال عن أسلوب الموسيقى فى عصر بعينه إنه اللغة الموسيقية لهذا العصر.

ولم يكن الأديب أو الفنان العربى فى العصر الحديث يبعيد عن الأدب والفن الغربى بل إن تأثره به قد فاق تأثره بالآداب والفنون العربية القديمة منذ أن اتصل العرب بالعالم الغربى عن طريق المبشرين أو المحتلين ورجال المال والتجارة الذين وفدوا إلى بلاد العرب، أو بواسطة البعثات العلمية التى أرسلتها البلاد العربية إلى الغرب أو بواسطة أبناء العرب الذين هاجروا إلى هناك، ومما يجعلنا نلاحظ انتشار المذاهب أو الأساليب المتبعة فى الأدب الغربى فى أدبنا العربى، أن كل حركات التجديد التى نشأت فى الأدب العربى المعاصر استمدت وحيها فى

الغالب من الآداب الأجنبية وتغلقت اتجاهات الأدب الغربي ومذاهبه في الحضارة العربية المعاصرة بحيث أصبحت جزءا منها لا يقل أهمية من تكوينها عن العنصر الأدبي القديم.

لقد أصبحت مذاهب الأدب الغربي موحيا رئيسيا لأدبنا المعاصر ويرى الدكتور محمد مندور أن ذلك توجه لا ضير منه بل لعل فيه كل الخير إذ إنه سوف يدخل أدبنا في تيار الأدب العالمي دون أن يفقدنا خصائصنا الروحية المميزة ودون أن يفقد أدبنا طابعه الخاص باعتباره مرآة لحياتنا العامة والخاصة بل ودون أن يفصل عن لغتنا التي ستظل مادته الأولية التي ينحت منها صورته وأشكاله والتي لا مفر لنا من أن تحتفظ بنصاعتها وأن نزيد من قدرتها على التعبير والإبحار وذلك لأن المذاهب والاتجاهات الأدبية لا تمحو خصائص الشعوب وخصائص اللغات ، ولكنها توضح الأصول الفنية والأهداف الإنسانية والاجتماعية للأدب وهي أصول وأهداف يمكن أن تمحو الخصائص المميزة لتلك الحيوانات ، فإذا قال التفكير الأوربي الحديث مثلا أن من واجب الأدب أن يعالج مشاكل المجتمع ، فإن مثل هذا المبدأ يمكن أن ينطبق على المجتمع المصرى أو العراقى كما ينطق على المجتمع الفرنسى أو الأمريكى مع احتفاظ كل مجتمع بخصائصه ومشاكله الخاصة ، ومع ذلك تعتبر كل هذه الآداب التي تصدر عن هذا المبدأ أدبا عالميا موحد الاتجاه والأصول.

ومما لا شك فيه أن ما يراه الناقد الكبير الدكتور محمد مندور لا يصلح لأن يطبق على أدبنا العربى فقط، إنما على سائر الفنون الناطقة بلغة الضاد من موسيقى وغناء وسينما ومسرح وقنون تشكيلية ، ويمكن أن تتخذ الفكرة كدليل لتحديد أساليب وأنواع التلحين العربى وتطبيقه على ما وصل إلينا من ألحان ابتداء من أوائل القرن العشرين ، وعلى وجه التحديد منذ عام ١٩٠٤ عندما ظهر الحاكى أو الفونوغراف من مصر وانتشر فى أغلب البيوت المصرية وسجلت شركات الأسطوانات أعمالا غنائية كثيرة لمطربى العصر.

ويعرف العالم أسماء كثيرة لمذاهب موسيقية عالمية. فبعد عصر الباروك ظهرت الموسيقى الكلاسيكية ثم الرومانسية وظهرت فى القرن العشرين أنواع أخرى هى الموضوعية والتعبيرية والكلاسيكية الحديثة والدوريكافونية والمدرسة القومية والموسيقى الإلكترونية.

وعلى رغم أن الأغنية فى الغرب لا تحظى بنفس أوج أهميتها عند العرب ، حيث يوجد إلى جوارها قوالب كثيرة للموسيقى الكلاسيكية هناك ، بينما تكاد تكون فى بلادنا هى الشكل الأساسى والمحورى للموسيقا. إلا إنها قد اتخذت هناك أشكالا متباينة وتميزت بتقاسيم ومسميات محددة، فأغنية البلوز، وهيب هوب Rap And Rab ، وأغنيات الروك وتنقسم بدورها إلى أغنيات Adult و Alternative و Pink K أما أغنيات Trance Teckno فهى من أنواع الأغنية لا يكثر فيه الحديث .

فى السينما يقسم النقاد أنواع الأفلام إلى روائية وتسجيلية ويطلقون على الأخيرة سينما الواقع «أو السينما الروائية» فهى ألوان ومذاهب فمنها الأفلام الرومانسية والإثارة وأفلام الموجة الحديثة، ومنها ما يرتبط اسمه بموضوع القيلم الكوميدي «تراجيدي» و«ميلودرامى» وغيرها. ويعرف العالم أربعة أنواع من المسرح تتخذ أسماء حسب الناقل الأساسى وأداء الممثل أو الغناء أو الرقص أو الإيماء التعبيري.

فالمسرح التمثيلى أو الناطق يشمل مسرح الكباريه والمسرح الاستعراضى ومسرح الطفل والمسرح السياسى والمسرح التجريبي والمسرح الارتجالى ويشمل المسرح الموسيقى الأوبرا بأنواعها مثل الكوميدي والغنائية. وأيضاً الأوبريت، ثم المسرح الراقص ومسرح العرائس الذى لا يقوم الإنسان الممثل بالدور الرئيسي فيه.

أما أنواع الفن التشكيلي فهى كثيرة منها التأثيرية والوحشية والتكعيبية والمستقبلية والتعبيرية والدارا والسريالية والتجريدية التعبيرية والتجريدية الثقائية والتجريدية الحركية والتجريدية الطبيعية والتجريدية الهندسية وتجريدية خداع البصر والسويروماتية والتجريدية الإيجازية والتجريدية العضوية والتجريدية الأبجدية والواقعية الاجتماعية وفن العامة والتصويرية والتطبيعية.

وقد قسم الأوربيون الشعر منذ عصر الإغريق إلى ثلاثة فنون هى شعر الملاحم والشعر التمثيلى، والشعر الغنائى بينما انقسم الأدب عند العرب إلى نثر فنى مثل الرسائل والخطابه والمقامات، وشعر لا يعرف العرب منه إلا الشعر الغنائى، وفرّق الغرب فى أشعارهم بين المذهب الكلاسيكى الذى أدى إلى تفوق الشعر الغنائى. والمذهب الرومانسى الذى أنتج الشعر الغنائى أما شعر الملاحم الذى أفرز للإنسانية «الإلياذة والأوديسا» فقد انضم فى العصر الحديث إلى الآداب الشعبية.

ويلاحظ الدكتور محمد مندور فى كتابه «الأدب ومذاهبه» أن الأدب العربى المعاصر لم يتأثر بالآداب الغربية المعاصرة فحسب، بل تأثر أيضاً بالآداب الغربية القديمة، ربما يفسر ما نراه من هذا الأدب العربى المعاصر من محاولات لنظم الملاحم أو المسرحيات الشعرية، ومن تقليد لمذاهب الغرب القديمة كالكلاسيكية وغيرها، بدليل ما نراه من اختيار شعرائنا للموضوعات التاريخية والأسطورية لمسرحياتهم الشعرية وانتقاء شخصياتها من بين الملوك والأمراء وأعلام التاريخ بينما تطورت التراجيديا القديمة إلى الدراما الحديثة التى تختار موضوعاتها من مشاكل الحياة أو المجتمع المعاصر وتختار شخصياتها من عامة الشعب. ومن هذه الحقائق ما يدعوننا إلى ضرورة تفهم مذاهب الأدب الكلاسيكى حتى يومنا هذا.

لقد ظهرت التخطيطات العامة لمذاهب الآداب والفنون عند الغربيين فى العصور الحديثة منذ عصر النهضة والبعث العلمى بعد أن خرجت الإنسانية من ظلام القرون الوسطى بينما ظلت مصر

والعالم العربي غارقين في الظلام حتى ظهرت حركة البعث والنهوض متأخرة عن زميلتها في الغرب بحوالي ٤ قرون ثم بدأت المحاولات لتعويض ما فات وملاحقة ركب الإنسانية العام.

لقد أوجدت إرادة الأدباء والفنانين مذاهب الآداب والفنون وإن سبق إليها الأدباء باعتبار أن الأدب وسيلة للتعبير عن حالات نفسية أو أوضاع اجتماعية تتغير فيتغير تبعاً لها الآداب ومذاهبها.

ويظهر ذلك إلى أي حد نستطيع أن نستعيد بإرادتنا تلك المذاهب، وقد تم ذلك بالفعل في كل ألوان الإبداع العربي من فنون باستثناء فن التلحين وقد كان يمثل الموسيقى العربية إلى أن بدأت إرهاسات التأليف للموسيقى البحثه وظهور الموسيقى المصرية في منتصف القرن العشرين ومع ذلك فقد ظلت لفن التلحين السيادة في مجال الموسيقى فنحن شعوب شفهية تعشق الكلمة وتبدع بها في أشعارها وأمثالها وكل ألوان الأدب والغناء أيضاً.

والفن صياغة فنية لتجربة بشرية أو إحساس إنساني، وهو نقد للحياة ومن المعروف أن غايات الفن تدخل ضمن تمييز مذاهبه المختلفة فمذهب الفن للفن هو الذي يتخذ للفن غاية خلق القيم الجمالية، والرومانسية تتخذ للفن غاية التعبير عن الذات الفردية، أما الواقعية فترمى إلى إظهار ما في الحياة من قبح وشر.

نريد أن نحدد مذاهب للتلحين واعية مسندة إلى أسس فلسفية ونقدية واضحة كما حدث للفنون والآداب الغربية والعربية لكنها مذاهب لا تحدها غايات الفن ووظائفه بل تمتد إلى رؤية الملحن للكلمات التي يتعرض لتلحينها وأسلوبه في التعبير عنها وهل التزم بما تحويه من معان أو أنه انساق وراء الأبهار بجماليات الغناء العربي بصرف النظر عن قدرة هذه الكلمات على احتمالها أو لا، أو أنه جرفته القدرات الصوتية لمن يلحن له فاختر أن يستعرض العضلات ليصبح الغناء للغناء ليس إلا، وتجاهل دور هذا الفن الجماهيري العظيم كوسيلة للتعبير عن كل المواقف الحياتية بحلها ومرها، وأن الغناء يمكن أن يكون في السلام ورده في الحرب حد السيف.

إنه عرض تحليلي لصناعة اللحن العربي، أنواعه ومذاهبه وأساليبه الفنية، والصناعية للكلمات والتعبير عنها في براعة احتاجت إلاما بأصول وقواعد التلحين وبأسلوب يعكس رؤية كل فنان ولأن الأسلوب هو الرجل كما يعلمنا أستاذ الصحافة الدكتور عبد اللطيف حمزة، فلزم أن نعرض هنا للرجال الذين لحنوا للعرب مع قراءة في أعمالهم لنحدد المذاهب والأساليب التي اتبعوها في إبداعاتهم اللحنية .

والأساليب هنا لا يحددها التحليل الأدبي للكلمات المغناة، ولا التحليل الأكاديمي لأسلوب اللحن من حيث عدد «الموازير» والمقامات الموسيقية المستخدمة وأسماء الإيقاعات أيضاً والمدة الزمنية التي استغرقها اللحن، إنما هو تحليل لأسلوب التعبير عن الكلمات والمساحة التي

استخدمها الملحن من جماليات الغناء العربي القديم والحديث ، فإذا كانت في تراثنا الغنائي
أغانٍ حلوة.. وأغانٍ مرة.. فربما ساعد هذا التحليل في تفسير لماذا كانت الأغاني الحلوة.. حلوة..
ولماذا جاءت المرة .. مرة .

محمد قابيل

□□□